4 تـأليف الأرواح

أصـبحت علامـة الـسالك، الـصادق في هجرتـه إلى الله تعـالى، علامـة واضحة يتعرف إليها الداعية الذي أرهبته أهـوال وصـف الهـوى النـاقض لحيوية الابتداء المتحرك الدفاق النـابض، تعرفـا سريعًـا لا يحتـاج إلى مزيـد فراسة وتجربة.

فليس من عجب إذن أن يسرع أبـو عـلي الروذبـاري الإشـارة إليهـا لمـا سألوه عنها، ولا عجب ثانية للبلاغة التي انبغت له وكانت بين يديه، حـين طفق يمنح هوية العمل وفق شروط ثلاثة، ويحكر صادق السلوك على:

(من سلك طريق المصطفى.

وأطعم الهوى ذوق الجفا.

وكانت الدنيا منه على القفا) [1].

ليس لمقبل على دنيا، أو صريع هوى معهم نصيب.

عصبة العزم بـاقية

إنه سلوك طريق المصطفى ﷺ أول الـشروط، بـل البديهيـة التـي قـد لا يرى البعض حاجة لذكرها، ولكـن مـن يعلـم أن بعـض آيـات الله هـن أم الكتاب وأُخر يعدلن الثلـث يعلـم أيـضا أن بعـض كلـمات المـصطفى ﷺ المحددة لطريقه الذي ندب لنا الروذباري سـلوكه: هـن أمهـات الحـديث،

(1) تاريخ بغداد ١/ ٣٣٢.

يضعن الموازين، ويرسين القواعد، ويجمعن المتفرق، وإياهن يعني الروذباري قبل أن يكون عني الجزئيات، وعليهن يؤكد.

ولقد تحدث ﷺ عن أمة حزم ضمن أمته العظمى التي تنتسب إليه، لا تترخص مع المترخصين، ولا تغفل مع الغافلين، بل تأخذ القرآن والسنة بعزم، ثم جعل لها علامة صارت ميزانا إسلاميا، فقال:

(لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

أي أن الداعية المسلم حيث يبحث مستقبل الدعوة الاسلامية عليه ألا يفترض مجرد افتراض بقاء وثبات المجموعة الحازمة ضمن الأمة الإسلامية الواسعة ثبات استمرار على مر العصور، إذ تقنع بمثل هذا الافتراض كل نفس مليئة بالأمل، ولكن يتيقن الداعية ذلك يقين عقيدة.

تكامل يتبادل الخير

وذو النظر الجزئي يصرف المقصود بهذه الأمة إلى صنف من العاملين يبهره خيره وفضله، فمن قائل أنهم أهل الحديث، ومن قائل أنهم الفقهاء، أو ثالث يرى أنهم الزهاد، أو الأمرة النهاة عن المنكر.

والصواب أنها الأمة المتكاملة الاختصاصات، التي يعطي وجودها صورة حركية بحاجات الإسلام المتعددة، كما رآها الإمام النووي:

(فرقة من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر الله -تعالى، من مجاهد وفقيه، ومحدث وزاهد، وآمر بالمعروف، وغير ذلك من أنواع الخير ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد، بل يجوز أن يكونوا متفرقين)[1].

(1) فتح الباري بشرح البخاري ١/ ١٧٤ طبعة الحلبي.

يعني: تفرق المكان، الانبثات والانتشار، لا تفرق الكلمة والبعد عن التشاور وإهمال الأسلوب الواحد.

وهذا من فقه النووي في العمل ومعاني الدعوة.

أما من قصرها على طائفة معينة فإنما يصيب بمقدار ما في الواحد النموذج من أفراد تلك الطائفة من كمال في الصياغة التربوية والعملية؛ كالإمام أحمد بن حنبل حين ذكر أنهم أهل الحديث، فإنه رأى شخصية المحدث جامعة لرواية الحديث المسند والفقه في متونه والزهد ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، فقصر الوصف عليهم وأصاب، ثم خلفه على توالي القرون خلف أخذوا من تفسيره حروفه، ولم يلتفتوا إلى الواقع الموصوف وكمال صياغات الدعاة من المحدثين الذين عضدوه في جولته مع الجهمية والمعتزلة، فعكفوا منفردين على ألفاظ من الحديث مجردة، وتركوا المجتمع يربيه من لا دين له، والسياسة يمارسها كل عميل وفاسق، يظنون أنهم الأمة القائمة على أمر الله.

ولا شك أن جماعة من أفراد تكاملت صياغة كل واحد منهم فقرن العلم بالجهاد والأمر والنهي بالزهد: أرفع من جماعة أخرى يكمل اختصاص الواحد منهم اختصاص الآخر.

وهذا ما يضع الجماعة المتصدية للقيام بأمر الله أمام واجب التربية الجماعية التي تأخذ من خير هذا ليشاركه هذا، ومن خير هذا فتفيضه على هذا، فيبطل أمر من خالفهم، بما سدوا من ثغرات، قد ينفذ منها هذا المخالف إلى أحدهم فيضرهم.

واجب تربوي لا تظنن أن السلف غفلوا عن إدراكه أو تلبية متطلباته، بل لا تزال قصص حياة بعضهم تنتظر من يفيد منها من دعاة الإسلام اليوم

اقتداء واتباعًا، من بعد ما بنت جيلا من الدعاة في يومها الماضي، أصلحوا ما أفسد الضعفاء، وقوموا ما حرفه الدنيويون.

نظرية الأشكال المؤتلفة

يبرز منهم في الصدر الأول: التابعي المحدث الفقيه المربي الشاعر:

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، حفيد أخي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأحد فقهاء المدينة السبعة، ومن رءوس العلم والنباهة الذين تلمذوا لعبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة والنعمان ابن بشير وعائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها وعنهم أجمعين[1].

نهج عبيد الله منهجا تربويا سماه: **(التأليف بين الأرواح)**، وخلد عنوانه شعرا فقال:

وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل[2]

ظاهرة بيت شعر تحركت به شفقة شاعر ليطرب قلوبا يبهجها الحرف البليغ، لكنه لمن عرف خلفياته يمثل خلاصة تجربة تربوية انسابت عبر سيرة مرب مصلح لتغذي قلوب يلذعها تفرق المسلمين.

يجزم أنه إحلال الألفة بين الأرواح، أو هو الاختلاف المشتت.

يعني ذلك أن مذهبه التربوي لا يبدأ ولا يكتفي بإعطاء العقول ما تحتاجه من علم شرعي، وتربية فكرية، وخبرة سياسية، ودراسة واقعية، بل يعتني بالقلوب أولا بجعلها متشاكلة، ويظل يواصل عنايته بها إن التفت إلى العقول بعد.

---

(1) تهذيب التهذيب ٧/ ٣٣.

(2) الأغاني ٩/ ١٤٤.

فمغزى نظريته أنها تعطي للتربية الروحية الأولوية.

وربما أعطت نظرة سريعة لحديث عبيد الله بن عبد الله في صحيحي البخاري ومسلم صورة قريبة من التفصيل لما كان يربي أصحابه عليه، ولكن التفصيل كل التفصيل تفهمه إن علمت أن تربيته أنتجت عمر ابن عبد العزيز رحمه الله، مثال المتجرد، ونموذج الحاكم العادل، إذ كان هو مؤدبه الخاص ومربيه الذي لقنه معاني الإيمان.

فمن بهرته شخصية عمر عليه أن ينظر من صاغ عمر وكان وراءه، ويفحص نظرية التأليف التي ألفت بين قلبه وقلوب عصبة الخير التي عاونته في إشاعة العلم والعدل في الأمصار، ممن صقلتهم صحبة عبيد الله بن عبد الله، من أمثال: أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أحد فقهاء المدينة السبعة ووالي عمر على المدينة، والزهري زعيم المحدثين، وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعراك بن مالك القاضي، وصالح بن كيسان.

فلقد علمهم عبيد الله أسس السلوك في عصر الفتن الذي عاشوه، واستطاع بنظريته التربوية أن يوجههم لتأسيس مجتمع السلام والعلم من بعد ما كادت الخلافات تستهلك ما عند الناس من خير، وأداه صدق نيته في مسعاه، وتركيزه على تربية عمر بن عبد العزيز من بعد، ووعيه للاحتمالات التي تكتنف مستقبل عمر، إلى تأييد رباني رفع عمر إلى السلطة، ليعلم الناس علم الآخرة من مركز القوة المهاب لا من زوايا المستضعفين المنسية.

نعم، حال السلم بين عمر والإتمام، وشوش أبو مسلم الخراساني فيما بعد على تلامذة جيل الإصلاح الذي وعي نظرية تأليف الأرواح، لكنها كانت

بارقة ولا زالت تنير طريق الدعاة السائرين، وكلمة باقية في عقب عبيد الله من حزب تأليف الأرواح.

مع السرب في النشيد

فلقد ظل وميض البارقة يتوالى، حتى استنار به إقبال من بعد القرون، فجدد حكمة عبيد الله، وراح يترنم في رياض لاهور، تتهادى نغمته، تعلم المسلم الجديد:

كل من أوتي حظا من حياة ... في سوى بيئته يلقى رداه

بلبل أنت، ففي الروض امرح ... ومع السرب بلحن فاصدح[1]

فليست الدنيويات بيئة المسلم، ولا مجرد الفكرة تعصمه، ولا الأهداف الجزئية تهبه الحياة، بل مؤتمر المؤمنين الشامل الغايات ومجمعهم المتكامل الذي يتهادى الخير.

يريد إقبال: ألا ننفرد، ولا نأتي بنغمة نشاز تسلب اللحن جماله.

يريدنا سرب لسان واحد بعد ما كنا زمرة قلب واحد، نمرح مرح الآمال، لا نحزن حزن اليأس.

يريد تشذيبا في نفوس الجميع، نبتر به كل نتوء زائد فيهن، ليتسق خطهن المستقيم، أي: محاسبة النفس وعتابها، فإن لم تستح فتقريعها.

علمك بالفساد صلاح

فلقد كاد أمية بن أبي الصلت -وظلام الجاهلية من حوله- أن يسلم بهذه المحاسبة ومثيلاتها، يوم قال:

---

(1) ديوان الأسرار والرموز/ ١٢٠.

عبد دعا نفسه فعاتبها يعلم أن البصير رامقها[1]

فسنها أمية سنة فطرية قبل أن تكون أمر شرع، تبكت من لم يأخذ الكتاب بقوة، أن شاعرًا جاهليا سبقه في الفقه، فأيقن أن بصيرا عليما يراقب خلجات النفوس من فوق سبع سماوات ويحصيها ويعدها عدا، وراح يلوم نفسه ويدقق في النقاش.

والمسلم الصادق يزيد على ذلك، فينظم نداء الفطرة بإرشاد القرآن، وتفزعه احتمالات النفس وزخارف تمنياتها، فيلجأ إلى الله رأسا وبلا إبطاء، يردد خلف تلميذ الثوري يوسف بن أسباط دعاءه:

(اللهم عرفني نفسي).

فإن في النفس من الأسرار والخفايا ما لا يكشفه إلا عون الله لنا، حتى أستاذا في علم النفس مثل سهل بن عبد الله التستري الزاهد يجزم بأن:

(معرفة النفس أخفى من معرفة العدو).

أي أن عيوبها تتستر وتموه أمرها كما يتستر العدو ويخادع، لكنه خفاء لابد من اقتحامه واستجلائه إذا أردنا النفس الزكية، وتعيين مكان العلة يسبق مقص الجراح.

إن بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأس الشفاء قبل الشفاء

أو كما قال زاهد مكة الثقة وهيب بن الورد:

(إن من صلاح نفسي: علمي بفسادها، وكفى للمؤمن من الشر أن يعرف فسادًا لا يصلحه)، وكقول حسن البصري: **(لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله)**[2].

---

(1) عيون الأخبار ٢/ ٣٧٥.

(2) كتاب الزهد، لابن المبارك/ ٥٢٨.

فلا يزهدنك فيها أنها معرفة عيوب وتأمل سالب، بل أنظرها على أنها خطوة ضرورية في طريق الإصلاح كما نظرها وهيب.

وأنظرها على أنها صفة لا غنى عنها للداعية إن أراد أن يتحقق في الدعوة، فإن من لم يعرف نفسه وينكر عليها منكرها: لا يستطيع أن يعرف نفس غيره ويقوِّم اعوجاجها.

تلك مادة في قانون العمل عند الكيلاني تقول:

(إذا كنت منكرًا على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك.

على قدر قوة إيمانك تزيل المنكرات، وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها.

أقدام الإيمان هي التي تثبت عند لقاء شياطين الإنس والجن)[1].

إنها حروف ليست كغيرها أن يقول الكيلاني:

(تقعد في بيتك وتتخارس).

جرسها مخيف .

إنها حروف هجاء مر في لغة الدعاة.

ويا له من عار يأنف منه كل عزيز نفس، والغيور لا ينسى هذه الجملة، كأنه يرى وجه الكيلاني يطل عبر القرون، يهتك عليه ستار النافذة، يعيره تواريه بالبيوت، وتلبسه بعيوب تقود إلى قعود.

تنقية وصفاء

وتسميها اللغة عيوبا وأخلاطًا، ولكننا عرفنا الغيبة وحب المدحة والهوى: سلاسل مقيدة وسهام شيطان، ونواقض بدايات نابضات.

---

(1) الفتح الرباني/ ٣٠.

فلا جرم أن يسمى الثوري الرياء بعد ذلك فسادًا حين يوصي أخاه ويقول:

(إياك وما يفسد عليك عملك، فإنما يفسد عليك عملك الرياء).

يمر عليه هكذا ولا يعرفه، غير ناس ولا عاجز، بل لأنه أمام معنى لا يمكن تعريفه، إنما يعرفه البريء منه فقط، كما يقرر الفضيل بن عياض حين يقول:

(لا يعرف الرياء إلا مخلص).

فمن ذاق حلاوة الإخلاص: عرف مرارة الرياء، ليس من طريقة أخرى.

يكن مخلصا ثم كفى، وسلام على عباد الله المخلصين.

آخرك نتن يا هذا...

وإلا فإن الرياء يولد عجبا، ينسى معه أن الناس تراب وماء، وينسى منة الله عليه إذ جعله مسلمًا، فيتبختر، ويتصنع ويتكلف المظاهر والفصاحة، ويستأجر له حاشية تحيطه بهيبة عارية.

ولو درى أوله وحاضره ومنتهاه لوقف مكان الشاعر الذي يصفه متعجبا، ولزاد تعجبا!!

فضائح مزرية نسيها المعجب فضحك منها الشاعر:

عجب من معجب بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذِره

وفي غده بعد حسن صورته ... يصير في اللحد جيفة قذِره

وهو على تِيهه ونخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العذِره[1]

---

(1) أدب الدنيا والدين/ ٢١٠.

ولذلك منع الثقات إسماع الثقة مثلهم كلمة مدح فيه، بسبب قرب قميص العجب من النفوس، ألا تتناوله يد الممدوح فتلبسه، حتى خشي عمر بن الخطاب على مثل أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ما قد يولده المدح من غرور في نفسه فقال لأنس رضي الله عنه يصف أبا موسى: (أما إنه كيس، ولا تسمعها إياه)[1].

فإن وقع أحد في العجب، وعاون الثقات الشيطان على أخيهم بمدحهم له في الوجه على حين غفلة من أنفسهم تطور العجب إلى كبر فيه غمط حق الآخرين، ونسي التواضع.

نعم، كما قال يونس بن عبيد:

(ليس في هذه الأمة رياء خالص، ولا كبر خالص.

فقيل له: لماذا؟

فقال: لا كبر مع السجود، ولا رياء مع التوحيد).

ولكن هذا السجود يحقق المنزلة الواطئة الدنيا من الفضل، وفوقها درجات من الفضل تتصاعد حتى تسمو، وقد أمرنا بالإتقان والمزيد، وإنما ذلك دين المتكاسلين، أن يرضوا بالقليل وينفذوا الضروري الذي يرفع عنهم شبهة الكفر والنفاق.

وماذا على داعية الإسلام لو أشبع نفسه بدل ذلك باستعلاء على نموذج الناس المنحرف، وجمع في الوقت نفسه تواضعًا لأخيه؟ ويبين مذهبه لمن يظن أنه في تناقض فيقول:

أتيه على كل الأنام نزاهة ... وأشمخ، إلا للصديق، تأدبا[2]

---

(1) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٤٥.

(2) ديوان البهاء زهير/ ٣٥.

فهو شموخ النزاهة، يسع الداعية، يغنيه عـن الكـبر، وهـو تواضـع الأخوة يتأدب به الداعية بلا تهمة خنوع، بل يلحـق برعيـل مـن دعـاة خمسمائة سبقوه، قص الإمام البنا علينـا في مـذكرات الـدعوة والداعيـة قصة رضاهم بعامل نجار أميرا عليهم لمـا عنـده مـن الفقـه والـصلاح والتضحية، وإعراضهم عمن يحمل شهادة الأزهر العالمية.

ولذلك ثبتوا، وغشيت قلوبهم السكينة في ظلال الدعوة؟

(ألا ترى أنه من شـمخ برأسـه إلى الـسقف شـجه، ومـن تطأطـأ أظلـه وأكنه)؟

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

obeikandl.com

8 الجندية طريق القيادة

حين تدعي نظرية ما دعواها، فإن اللحظات الحرجة وحرارة التحديات هي التي تكذبها آنذاك أو تصدقها، فيرسخ مدلولها أو يهمل، ويصير أساسا في التعامل والتفاضل أو يعرض عنه.

وحين أدلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بنظريته في الأشكال الروحية المؤتلفة، وجربها في أصحابه وتلامذته كان عليه أن ينتظر يوم فصل يؤيد مذهبه أو يخونه، فيتكفل بنقله للأجيال اللاحقة، أو يسلمه النسيان.

الإمارة حمل ثقيل

ولقد كان يوم خلافة تلميذه عمر بن عبد العزيز هو ذاك اليوم الفصل، فلئن لم يكن ثمة جيش عاص يتحدى تلميذه وراء أسوار دمشق، فإن هناك تحديات نفس مقبلة على إغراءات الرياسة، وبطرًا اجتماعيًا، ورخاوة خلف لسلف الهمة والجهاد.

ومع كل خطوة لعمر حين كان يرتقي المنبر ليخطب خطبته الأولى:

كانت ترتجف قلوب الذين يظنون أن عبيد الله قد أحيا فيهم فقها كاد ينحرف بالتأويل، وتزداد دقات قلوبهم مع استدارة عمر، يخافون أن تغلب شهوة تنفر الناس عن مذهبهم التربوي، وتزهدهم فيه.

إنها رجفة الحاسم، لا الشك في الفقه المسند، إذ ربما كان للخوف معنى لو كان لسان عمر يتكلم أو عقله المجرد، لكنها كانت دموعه ثم، وكان قلبه...

كان فوق المنبر خريج مدرسة يحاول أن يفي لأستاذه، ويطمئن أشكاله ويحزن متواضعا لفتيان لم يعرفوا ما عرف تفرقوا، فانطلق يعلن انتصار عبيد الله.

(ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا)[1].

وهذا الشعور هو أدنى ما تحس به الأرواح المؤلفة وتتميز به عن غيرها، فحين تزول المزايا المصطنعة، والطباع المتكلفة، ويحل التواضع، وتسود الأخوة لن يبقى من معنى الإمارة والرئاسة إلا ثقلها الثقيل.

عمر يطور مذهب التأليف

لقد أبرد عمر حقا بكلماته هذه قلوبا طال همها واشتياقها إلى رؤية واقع يظنه الضعاف خيال مثاليات، وتحليق تمنيات.

نعم، كانت كلمات عمر وعدًا لمستقبل، وإخبارًا عن شعور متوار في كامن الصدر، ولكن كفى بوعود الأحرار ضمانًا، وبأخبارهم صدقا، ولذلك أسلس له الناس القياد، وحصل منهم تجاوب سريع معه، أحسن عمر استغلاله أيما إحسان، فطور نظرية أستاذه في التأليف، فجعل ابتداء التربية ينطلق من معالجة أعقد عقدتين في الجماعات: عقدة الفراغ، وعقدة حب الرئاسة والتنازع عليها.

فالمطالع لسيرة عمر يجد بشدة اهتمامه بعلاج هذين العيبين واضحًا وظل تأثيره في ذلك ينطق الشاعر بعد الشاعر، والحكيم بعد الحكيم يستمدون من تجربته معاني الإصلاح.

---

(1) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٠.

عرف عمر سيئات الفراغ، فأوجد للناس شغل خير ألهاهم، إن لم يكن عملا عمرانيا وسعيا في مصالح المسلمين، فشغلا تأمليا مع النفس، وفكرا في القلب، يفيضان من بعد عزمات فنهضات.

لقد أخرجهم من الغفلة والإهمال والبرود، إلى التذكر والفحص والاستدراك، وكفى بهذا الإخراج نجاحًا عند من يعرف تربية الجماعات، وفي خطبة وكلمات كلها تسمية وإشارة إلى عيوب النفوس، وطرق إصلاحها، وترقب الموت، ورجاء رحمة الله، وخوف عقابه، ثم زاد فاستقدم الخوارج إلى دمشق، وأمرهم بإنهاء تفردهم ولزوم الجماعة، وذكرهم ضرر الفرقة، فبات جميع الناس في شغل وادكار، بمثلها انتفع أبو العتاهية من بعد، فاتضحت له مثالب الفراغ، فقال:

ما أحسن الشغل في تدبير منفعة أهل الفراغ ذوو خوض وإرجاف

فالمشتغل جاد فيما هو فيه، يربي قلبه، ويعلي همته، والفارغ الكسول يفتش في الفتن عن لهو يؤنسه.

ثم دعا عمر ثانية إلى زهد في المناصب هو أهم من الزهد في الأموال، واستخلص من الفتن التي حدثت في الصدر الأول دروسًا، ووعظ المستشرقين للرئاسة مواعظ أماتت فيهم حبها، بمثلها انتفع أبو العتاهية مرة أخرى، فحذرك:

أخي: من عشق الرئاسة خفت أن يطغي ويحدث بدعة وضلالا

وتخوفه هذا صواب لم يبالغ فيه، فإن شرع الله وعرف المؤمنين ينفران عن طلب الرئاسة، فمن طلبها تمحل لذلك ولابد، فيزين الذميم، فتكون البدعة، ويقمع المخالفة لها ويعاديه، فتكون الضلالة، ومن نظر إلى عهد ما بعد عمر أدرك ذلك، فإن القلوب عزفت عما قبحه وآمنت، إلا قلبا واحدًا من قلوب أقربائه،

عشق الرئاسة، فسقاه السم، فمات عمر، فكان عصر الضلالة، والسنوات العجاف.

مدرسة الثوري تواصل التربية

ولما هالت المربين تلك الضلالة التي عكرت صفاء تاريخ المسلمين بعد عمر: أصفقوا على ذم التنازع على الرئاسة وتحذير الأجيال اللاحقة منه، وجعلوه أصلًا مستقلًّا من أُصول التربية الإسلامية، يتجاوز أن يكون مجرد علاج واقع أرهق الذين بعد عمر.

* فللثوري كلام كثير جَزْل في ذلك تصدَّر به المربين، يبدؤه بتقرير واقع الناس، فيقول:

(ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة).

ورؤياه هذه ظلت تؤرقه، حتى أمسك بقلمه يكتب رسالته المشهورة إلى صاحبه عَبّاد بن عباد، وإلى كل عَبّاد من الدعاة في كل الأجيال، أن:

(إيّاك وحُبّ الرياسة؛ فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقّد نفسك، واعمل بِنيَّة).

ثم جسّد حقيقة ينساها طلاب الرئاسة، فذكرهم أنّ:

(من طلب الرياسة قبل مجيئها: فرت منه).

أي: يبقى عليه وزر الشوق الآثم، وزفرة الصدر الراغم، ليس إلا، ويرجع صفر اليدين، وبخُفَّي حُنَين، لم يذهب لأبعد من فضح نفسه أمام جمهور العاملين.

* وكما كانت نظرية الأشكال المؤتلفة مذهبا لعبيد الله بن عبد الله جسده في جماعة عمل متآخية استدركت التفرق، كان نداء الحذر في طلب الرئاسة مذهبا للثوري جسده في جماعة زهد محتسبة استدركت تفرقا آخر، ولانت لها نفس هارون الرشيد، فشغل الناس معه بحج أو بغزو، سنة فسنة.

* ولعل الفضيل بن عياض هو أهم أركان تلك الجماعة التي عضدت الثوري في شرح مذهبه من بعده، إذ صحبه وأخذ علمه، وتأخرت وفاته عنه قرابة ثلاثين سنة، كان يكثر خلالها ذم التكلف في طلب الرياسات وعلى الأخص تركيزه على كشف النفسية المعقدة الغريبة التي يحملها طالب الرياسة.

يقول الفضيل:

(ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحدًا عنده بخير، ومن عشق الرياسة فقد تودع من صلاحه).

ومن لم يجرب الأعمال الجماعية يستغرب مثل هذا أو يستبعده، ولكن الممارس يحفظ قصصا تصدق الفضيل أيما تصديق؛ فإن العمل الإسلامي حين يدع الانتقاء، ويلهيه التكاثر بالأعضاء يدخله أصحاب التخليط ويظهر في محيطه مثل هذا الذي وصفه الفضيل.

فمن لم يزهد في الرياسة صار ميئوسا منه عند الفضيل، أي وإن زهد في الأموال وأطايب الطعام وجمال النساء؛ لأن (الزهد **في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا**)، كما يقول صاحبه وصاحب الثوري، الزاهد يوسف بن أسباط.

كلام لا يقولونه اعتباطًا، بل كانت تأملاتهم في مصائر الجيل الذي عرفوه تعمل كعمل دوائر الإحصاء الحديثة، يحصون من كمل ونقص، ومن وصل ومن خانته قدمه، والعثرة التي عثرها، إن كانت في أول الطريق، أو عند الوسط، أو لما كاد أن ينتهي ولم يبق له إلا خطوة الفوز، ثم يعطونك نتائج الإحصاء في أقوالهم هذه.

تجريب وتدرج...

وأخذ الشعر أيضًا دوره في التحذير آنذاك، ولفت الشعراء أنظار المتنازعين إلى كثرة الأعداء من حولهم، وشماتتهم بالذي يحصل بين المؤمنين، وانتفاعهم به نفعا مباشرا في عمل جاد إيجابي يستغل فرصة انشغال المؤمنين بأنفسهم، فأرسلها شاعر ذاك العصر زفرة ألم:

إن التنازع في الرئاسة زلة ... لا تستقال، ودعوة لم تنصر

أو ما ترون الشامتين أمامكم ... ووراءكم من مضمر أو مظهر

وهذا في الحقيقة هو الوصف الدائم لظروف وآثار كل نزاع، بل إن كثرة الأعداء اليوم، وخططهم المنظمة، تجعل المحنة الحالية أعنف محنة مر بها الإسلام في تاريخه، وتستدعي أقصى درجات الوحدة الإيمانية بين العاملين.

والنجاة من فتن اليوم لن تكون إلا باللجوء إلى الشرط الذي وضعه سلفنا بالأمس وأودعوا فيه خلاصة تجربتهم في اكتشاف مسلك الوصول الصحيح إلى الرئاسة، فإنهم لم يعترفوا إلا بالطاعة طريقا إلى القيادة، وجزموا بأن من لم يكن في آخر الصفوف، تغمره عجاجة المتقدمين، فلن يستطيع أبدًا قيادتهم إن شغر المكان واحتيج إليه.

ولذاك كانوا لا يرأس منهم ... من لم يجرب حزمه مرءوسا

من لم يقد فيطير في خيشومه ... رهج الخميس فلن يقود خميسا

قانون تدرج، ومرحلة اختبار، إذا أساء خلالها العامل أدب الجندية، واستعجل، وتطاول: جوزي بالحرمان، ودُعِيَ إلى التوبة، وأرجع إلى محل البداية يستأنف المحاولة.

لا.. يا عباد الرحمن

ليس في هذا القانون اعتداء، ولا احتكار أو تجبر، وإنما هو صياغة تجريبية لسنة النبي ﷺ في اختيار الأمراء، فإنه كان يقول:

(إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه)[1].

أي هذا الأمر من شئون المسلمين.

وشدد في النصيحة الصريحة لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه ، فقال له :

(يا عبد الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)[2].

مع أن عبد الرحمن من صالحي صحابته وشجعانهم، ويكفيه أنه لما التزم وصية النبي ﷺ هذه صار قائد جيش المسلمين الذي كلف بفتح كابل عاصمة الأفغان، وكان حصنها من أمنع الحصون، وسقط عنده من شهداء المسلمين ما لم يكن في معركة أخرى.

سيد يشرح...

ولا يظنن أن هذا المنع عن طلب الإمارة سيفوت فرصة الالتفات إلى خير صاحب الكفاية الصامت، فإن العمل اليومي يكشف ولابد كل قابلية لدى الدعاة، وهي ظاهرة يؤكدها سيد قطب تأكيدًا، فيتساءل:

---

(١) صحيح البخاري ٩/ ٨٠.

(٢) صحيح البخاري ٩/ ٧٩.

obeikandl.com

(لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما؛ كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة)؟.

ويجيب:

(إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم، كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدًا بالتزاحم عليه -اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله -تعالى- ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم، وهؤلاء يجب أن يمنعوها.

ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضًا.

إن الحركة هي العنصر المكون لذلك المجتمع، فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية...

أولا: تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله- على عهد النبوات- أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله-على مدار الزمان بعد ذلك- فيستجيب للدعوة ناس، يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة، فمنهم من يفتن ويرتد، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه، فيقضي نحبه شهيدًا، ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق.

هؤلاء يفتح الله عليهم، ويجعل منهم ستارًا لقدره، ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعده بنصر من ينصره، والتمكين في الأرض له، ليقيم مملكة الله في الأرض -أي لينفذ حكم الله في الأرض- ليس له من هذا النصر والتمكين شيء، إنما هو نصر لدين الله، وتمكين لربوبية الله في العباد.

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة، ولا عند حدود جنس معين، ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا الإنسان، كل الإنسان، في الأرض، كل الأرض، من العبودية لغير الله، وليرفعوه عن العبودية للطواغيت، أيًا كانت هذه الطواغيت.

وفي أثناء الحركة بهذا الدين - وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم - تتميز أقدار الناس، وتتحدد مقاماتهم في المجتمع، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية، الجميع يتعارفون عليها، من البلاء في الجهاد، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق، والقدرة والكفاءة، وكلها قيم يحكم عليها الواقع، وتبرزها الحركة، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية...

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية، كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين، ثم الأنصار، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل، ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن

البلاء في الإسلام، في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضا، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين، مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع، وعندئذ تنتفي الحاجة، من جانب آخر، إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية.

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية، ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة.. لن يوجد اليوم أو غدًا إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها.. وهذه نقطة البدء، ثم تعقبها الفتنة والابتلاء- كما حدث أول مرة- فأما ناس فيفتنون ويرتدون، وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم، ويموتون شهداء، وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام، يكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار، حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق، ويمكن لهم في الأرض- كما أمكن للمسلمين أول مرة- فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي.. ويومئذ تكن الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية، وفق الموازين والقيم الإيمانية... ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم.

ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى، فإذا استقر المجتمع بعد ذلك؟

وهذا السؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين، إن هذا الدين يتحرك دائما ولا يكف عن الحركة.

...يتحرك لتحرير الإنسان.. كل الإنسان في الأرض... كل الأرض من العبودية لغير الله، وليرفعه عن العبودية للطواغيت، بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة.

وإذن، فستظل الحركة - التي هي طبيعة هذا الدين الأصلية- تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب، ولا تقف أبدًا ليركد هذا المجتمع ويأسن- إلا أن ينحرف عن الإسلام- وسيظل الحكم الفقهي -الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية- قائمًا وعاملا في محيطه الملائم... ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه...

ثم يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا، ويصبح الأكفَّاء الموهوبون في حاجة في إعلان عن أنفسهم وتزكيتها، وطلب العمل على أساس هذه التزكية.

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة، إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين- كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه والالتزام في المجتمع المسلم- ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية، سواء لمجلس الشورى أو للشئون المحلية، أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام - الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد، أو أهل الشورى له- يختار لها من بين مجموع الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة)[1].

(1) في ظلال القرآن جـ١٣ ، ص١٤.

وهذا الكلام لسيد كلام صحيح صائب، يظهر صوابه على الأقل في الجماعة الإسلامية الحركية إن لم نوافقه على احتمال حصول هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي العام المحكومة بحكومة إسلامية.

بل إن أزمة الحركة الإسلامية الحاضرة إنما هي أزمة قلة المربين والإداريين من أصحاب القابليات الممتازة والصفات العالية، ولن يغفل قائد عن ذي علم وتقوى متحمس في وقت يمسك فيه بالعدسة المكبرة يفتش عنهم تفتيشا، ولكن تجارب القادة تكره بعث وتأمير المتكلف المستشرف المغرور، فنظن نحن أنهم قد غفلوا عنه، وما هي بالغفلة.

الاستثناء لا يقلد

أما قصة الصدائي رضي الله عنه حين طلب الإمارة وأجابه النبي ﷺ فإنما هي استثناء اقتضته المصلحة وأوجبته الظروف، وذلك أن رسول الله ﷺ أرسل بعثا إلى اليمن ليحارب بني صداء، فشفع فيهم أحدهم، وأسلم، وجاء بوفد منهم إلى رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم، وكان هذا الشفيع مطاعا فيهم، فطلب من رسول الله ﷺ أن يؤمره عليهم، فأجابه إلى ما طلب ففي ذلك كما يقول ابن القيم:

(جواز تأمير الإمام وتوليته لمن سأله ذلك إذا رآه كفؤا، ولا يكون سؤاله مانعًا من توليته، ولا يناقض هذا قوله في الحديث الآخر: إنا لن نولي على عملنا من أراده، فإن الصدائي إنما سأله أن يؤمره على قومه خاصة، وكان مطاعًا فيهم محببا إليهم، وكان مقصده إصلاحهم ودعائهم إلى الإسلام، فرأى النبي ﷺ أن مصلحة قومه في توليته، فأجابه إليها، ورأى أن ذلك

السائل إنما سأله الولايـة لحـظ نفـسه ومـصلحته هـو، فمنعـه منهـا، فـولي للمصلحة ومنع للمصلحة فكانت توليته لله، ومنعه لله)[1].

فها أنت ترى أنه هو الذي استتابهم، وأنهم بلاد بعيدة منزوية ليس فيهم لو رجعوا أصلح منه، فأقره النبي ﷺ على طلبه، ولا نحفظ في السيرة قصة أخرى مماثلة لها.

يوسف والخزائن

كذلك قول يوسف عليه السلام للعزيز:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥].

فإنه (كان حصيفا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة، وليكون مسئولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره، طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا شرع، فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه، فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد أنه غنيمة، إنما هي تبعة يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلفهم رءوسهم)[2].

وقد فهم الفقيه الأندلسي أبو بكر الطرطوشي من قول يوسف :

(أن من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره، أو أمة لا يعرفون، فخاف على نفسه، أو أراد إبراز فضله جاز له أن ينبههم عن مكانه وما يحسنه، دفعا للشر عن نفسه، أو إظهارًا لفضله فيجعل في مكانه).

---

(1) زاد المعاد ٣/ ٥٣.

(2) في ظلال القرآن جـ١٣ ص١١.

قال: (وفيه فائدة أخرى: وهو أنه إن رأى الأمور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدي الأمانة، ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية جاز له أن ينبه السلطان على أمانته وكفايته.

ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي: من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء جاز له أن ينبه السلطان على مكانه ويخطبه خطة القضاء.

وقال بعضهم: بل يجب ذلك عليه إذا كان الأمر في يدي من لا يقوم به)[1].

وما ذهب إليه ظاهر الصواب، أي: في مواجهة الظالم والضعيف، وعلى ذلك يحمل قول أصحاب الشافعي، ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن يوسف كان يخاطب ملكا كافرًا، وأنه لم يطلب ما طلب إلا من بعد تعريض ظاهر بتأميره من قبل العزيز، على ما يدل عليه سياق السورة، فإن العزيز قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤].

فطريقة الإيجاز البلاغي القرآني حذفت ما يفهم ضمنا، فإن رسول الملك قال ليوسف فيما يبدو: إن الملك يدعوك، وقد سمعناه يفصح عن رغبته في استعمالك وتأميرك، وتأكد ذلك ليوسف في الإشارة الواضحة في خطاب الملك له حين وصفه بالتمكين والأمانة.

وعليه: فإن تجزئة تفسير قول يوسف وجعله نسبيا واجب، بالتضييق على أناس في تقليد يوسف، والتوسعة على آخرين.

فمن كان من الدعاة مقربا من القائد، مستعملا في عمل مهم يدل على أن القائد وثقه وقواه وأمنه إلى درجة سمحت له باستعماله وجعله من أعوانه، فإنه يسعه -إذا آنس من نفسه بعدًا عن الغرور- أن يشير على القائد أن يستعمله في عمل آخر قريب في أهميته مما هو فيه، هو أكثر إتقانا له، أو

(1) سراج الملوك/ ٧٩.

يرى أن مصلحة ما توجب تلك خفيت على القائد. ويلجأ خلال ذلك إلى التعريض دون التصريح ما أمكنه ويعرض رأيه بأدب كامل ولفظ رقيق.

وأما من كان من الدعاة غير مستعمل في عمل من أعمال الدعوة، ويريد أن يطلب نوع عمل مهما صغر، أو مستعملا في عمل صغير ويريد أن يستعمل في عمل كبير لا يقاربه، فالباب ضيق أمامه ضيقا شديدًا، وتقييده بالأحاديث الصحيحة الواردة في المنع أصوب حتى ولو وجد في نفسه قوة وكفاية، والله أعلم.

في التأني السلامة...

وخير له من ذلك أن يتأنى في تحديث نفسه بالإمارة، فإن التأني زين كله.

❋ يتأني أولا إلى حين اكتمال فقهه ووعيه، ينفذ وصية عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين قال:

(تفقهوا قبل أن تسودوا) [1].

فيجب على الداعية أن يتفقه، لسيادة وقيادة من يأتي بعده من أفواج الآيبين إلى الإيمان.

❋ ويتأنى ثانيا إلى حين اكتمال رجولته وتجربته الحياتية، فإن الأيام لا تزال تزيد المرء تجربة وعلما كما زادت الشاعر الذي خاطبك:

أخي عندي من الأيام تجربة فيما أظن وعلم بارع شاف

فينفذ وصية الإمام الشافعي حين يقول:

(إذا تصدر الحدث: فاته علم كثير) [1].

---

(1) صحيح البخاري ١/ ٢٨.

obeikandi.com

* ويتأنى ثالثة في ذلك أيام الفتن على الأخص، ويكون متوقفا حذرا، ينفذ وصية أبي العتاهية هذه المرة:

اصبر على الحق تستعذب مغبته والصبر للحق أحيانًا له مضض

وما استربت فكن وقافة حذرًا قد يبرم الأمر أحيانًا فينتقض

وأقل ما في الفتن أنها ريبة كلها، وقد ترى الفتنة أنها قد أبرمت أمرها وأحكمت خطتها، فينقضها وعي الدعاة المؤمنين.

نكلها إلى القادة أفضل..

والداعية المتواضع الثقة قد تعزف نفسه عن الإمارة، لكنه يقع في اختلاف مع غيره عند ترشيحه للآخرين لبعض الإمارات، فيسرع المختلفان إلى التعصب لاجتهادهما، في فورة من الحماة، ويجزم كل منهما بتخطئة صاحبه، أو الاعتقاد بأنه يخالفه لنوع هوى ومن باب التعسف.

ومثل هذه الظاهرة خطر ولا شك، لكنها تستحيل بسرعة إلى مجرد هاجس عابر خال من الضرر إذا انتبه كل منهما إلى وجوب مراعاة الآداب الشرعية في علاقات الدعوة، كما أسرع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى مراعاتها حين:

(قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة.

قال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس.

قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي.

---

(1) فتح الباري ١/ ١٧٥.

قال عمر: ما أردت خلافك.

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجُرات:١])[1].

ولا شك أن تذكر الدعاة دوما لهذا الأدب، والتطلع لقول قادتهم وإنفاذ اختياراتهم: يجرد مثل هذه الخلافات من كل خطر بتاتًا.

فإن تشدد القادة، وأقصوا عن المسئولية عن الجماعة من لان أو انحرف أو خالف: فبالحزم أخذوا، ليس في ذلك ضير.

وإن تساهلوا، وعفوا وتجاوزوا، فبسد الذريعة وقواعد لمِّ الشمل أخذوا، ليس في ذلك ضير آخر.

كل ذلك صواب في أعراف سياسة الجماعات، تؤيد الظروف النسبية المختلفة هذا المسلك أو ذاك، ما لم يكن ثمة هوى.

ورحمة الله على من تجرد وغلب هواه، قائدًا أو جنديًا.

❊ ❊ ❊

(1) صحيح البخاري ٥/ ٢١٣.

openkandil.com

obeikandl.com

9 أنوار الفطنة تبدد ظلمات الفتنة

الجندية طريق القيادة، ويوجد ثمة غرور عند البعض وتجاوز يجب تشذيبها.

كذلك مضى فقه الدعوة صريحا حاسمًا.

إنها صراحة والله، لا تظنن أنها خشونة فتهرب منها وتعافها نفسك، فإن أصررت على وصفها بأنها خشونة، فإنما هي خشونة التربية التي سلكها عبد القادر الكيلاني من قبل، فظنوا كما ظننت، فقال لهم:

(لا تهربوا من خشونة كلامي، فما رباني إلا الخشن في دين الله عز وجل) [1].

ونقول لدعاة اليوم كما قال: لا تهربوا من خشونة كلامنا وصراحته، فإن الكلمات الدبلوماسية لا تنفع في تربية الدعاة، ولا أساليب الإيماء، بل هي الإشارة الواضحة فحسب تربي، بلا اعتداء وجرح.

أثناء التأني يكون الحساب

وأولى للداعية المسلم أن يكون صريحا مع نفسه قبل ذاك، يخلو خلال تأنيه في الفتن، وخلال انتظاره اكتمال فقهه، فيحاسب نفسه يعاتبها، ألا يقع في الشبهات.

فمن لم يحاسب نفسه في أموره ... يقع في عظيم مشكل متشابه

فإن مهمل نفسه تزدريه الشبه، فلا تقنع منه بطفيف، وإنما تأتيه الشبهات كبيرة، عظيمة الإشكال، خفية التوريط، توهم القلب، فيتعكر

(1) الفتح الرباني لعبد القادر / ١٦٢.

الشعور، أو تؤلب اللسان، فيلحن النطق. أو تميل بالأذن، فيتشوش السمع، أو تغلق الأجفان، فيغبش النظر.

ولابد لطالب الفقه من حساب وعتاب.

ازدواج... والقلب واحد

يعاتب القلب: لم يكبح؟

ولم يريد قطع استرساله مع معاني الخير وعزمات العمل، ويأذن لإغراء الدنيويات أن يسامره؟

إنها ساعات التخليط أصبحت تطول في يوم الدعاة، وكأن سمت الأمس قد تغير.

ولو صدق أحدنا نفسه، وأفصح عن حقيقته، لاعترف بالذي اعترف به أبو العتاهية حين قال:

تزاهدت في الدنيا، وإني لراغب أرى رغبتي ممزوجة بزهادتي

فأكثرنا يقع في هذا التخليط: قدم في الدعوة، وقدم في الدنيويات والرغبات والآمال العراض.

لم نتمحض.

وقد أتعبنا الذين يربوننا وأرهقناهم.

فلا نحن ممن ييأس العمل منهم فيتركهم وهو في مأمن من اللوم، لقدم الدعوة ذاك، ولا نحن بالمشمرين حق التشمير فنريحه، بل يعوقنا قدم الدنيا عن سرعة انطلاق عرف بها جيل الدعوة الأول إلى أعلام لا زالت مرفوعة والله لنا كما رفعت له.

وما هي إلا ساعة عتاب واحدة تنهي تعدد الولاء لو تدبرنا.

هزة إيقاظ، لكتف غفلة، من لسان صراحة يعرف كيف يقول:

تيقظ، تيقظ.. تيقظ

تيقـــظ، فإنـــك في غفلـــة يميـد بـك الـسكر فيمـن يميـد

تنـافس في جمـع مـال حطـام وكـل يـزول، وكـــل يبيـــد

كأنـك لم تـر كيـف الفنـــا وكيـف يمـوت الغـلام الجليـد

وتـــنقص في كـــل تنفيـــسة وأنـك في ظنـك قـد تـــزيـــد

فهي الأحلام وأضغاثها تخدع... توهمنا أننا نريد، وإنما هي الأنفاس تواصل نقصها، والسكر بالتكاثر يميد بنا فيمن يميد.

مصاعب.. ولا صمت لها..

ويعاتب الداعية من بعد لسانه: لم يستحل اللحن والهذر والجدال؟ ولو فقه المرء لأدرك أن صدق الاندفاع يغني عن صدق اللسان أصلا، فهو في غير حاجة إلى كثرة كلام لو كان صادقا.

والداعية يسبق بفعله قبل أن يفصح بلسانه، يقتدي في ذلك بأبي الفضل ابن مالك لما وصفه تلميذه الجنيد فقال: **(يسبق فعله قوله)**[1].

فإن قال واحتاج إلى النطق فهو القول الواحد الذي لا يتبدل، وهو القول الواضح الذي لا تلعثم فيه.

إذا اختلفت سبل الرجال وجدتـه مقيما على نهج من القـول واضـح

نهج واحد، بوضوح كامل، يكشفان عن قلب في الصدر واحد، لا قلوب موزعة، وعن ثبات في صفاء، لم تكدرهما رجرجة ولا أخلاط، فإن

(1) تاريخ بغداد ١٤/ ٤٢٢.

اللسان ما زال يترجم للقلب، ولم تزل عفتها سواء، ولها شرف وعرض مشترك، وإنما فسق الألفاظ من فسق الشغاف، وما الألسن إلا مغارف للأفئدة، تماما كما رآها البارحة يحيى بن معاذ على حقيقتها، فوصفها لك، ونبهك إلى أنَّ:

(القلوب كالقدور في الصدور، تغلي بما فيها، ومغارفها: ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه، من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه: اغتراف لسانه).

تشبيه قد يكون ساذجًا كما يبدو لأول وهلة، لكن فيه روعة الحقيقة، وصدق الوصف. اغتراف اللسان يذيقك طعم القلب، ما كذب والله وما غلط، ولم يتقدم بين يدي الله المستأثر بعلم ما في الصدور، لكنها فراسة الإيمان: تسمع حركات اللسان وتميز نغماته، فترى الذي يجيش بين الضلوع.

ثم يأتيك صحب من دعاة بعد هذا، يملئون ليلهم رئاء ومراء، وتشقيق كلام وتدقيق ألفاظ، والفرص تمر من بين أيديهم ومن خلفهم، يرقبون أن تتدلى لهم عجيبة الدنيا الكبرى في استئناف الحكم الإسلامي بحبل تدليًا، ويحلمون بقطاف لم يتقنوا سقي ثمره، ينسون أن الدهر لا يأتي بالعجائب، وإنما هي تضحيات الرجال وخالصات الفعال، لا اللغو، ولا تقليب الكفوف والمناحة على واقع المسلمين.

وصحاب في جدال ... ومضي غير صائب
يرقبون الدهر أن ... يأتي عنهم بالعجائب
فإذا واتتهم الأيام ... فالربّان سائب
وتضيع الفرصة المثل ... ولا تجدي المنادب

ضـــــل مـــن يأمـــــل أن يقهـــر بـــاللغو المـــصاعب[1]

ولئن سألتهم: لم التشقيق والتدقيق؟

ليقولن نريد الفقه، ونبغي الوعي، ونـتقن التخطـيط، وهـم بـذلك قـد أخطئوا من حيث أصابوا، واختلط الحق الذي ذهبوا إليه بباطل من مخالفـة أحكام التفاضل، فإنهم تمسكوا بفرع عـلى حـساب أصـل، ودنـدنوا حـول سنن قد تفوت معها فرائض الأخوة، ووعي قد تنسى الأرواح بعده دروب التأليف.

ولو تأملوا بهدوء وحسبوا ووازنوا، لعرفوا أن لقاء الدعاة الهادئ، تحت جناح التحابب والاحترام المتبادل خير من طلب صاخب للوعي، فإنه لو لم يكن في اللقاء إلا تثبيت بعض الدعاة لبعض، وإلا الـسناد النفـسي في مثـل هذه المحن الشديدة والضراء الطويلة، لنال لقاؤهم وصف النجاح، لكـنهم صحب يستعجلون.

لماذا الجفاف يا عين؟

وعبر عتاب سريع من الداعية لأذنه، يلتفت خلالـه إلى منـاد يناديـه أن: **(يا أيها الرجل؛ لا تكن كالمنخل، يرسل أطيب ما فيه، ويمسك الخثالة)**[2].

ويتعهد له أن يشيع أطيب مـا يـسمع، ويـستر لفـظ المـستعجل النـادم، وخيالات الحالم النائم:

ينتقل رابعا إلى عتاب طويل لعينه. يسألها أولا: لم تخطئ فتختار الجفـاف وتقحط؟

---

(1) للأميري في ديوان ألوان طيف/ ٤٠٠.

(2) سراج الملوك/ ١٤.

وصواب من مقلة: أن تصوبا.

كما يقول الشاعر:

فصوابها أن ترسله وابلا صيبا على أرض الأخطاء، بين يدي رب غفور يحب أن يتملق له عبده بالدمع، ويحب أن يسمعه، في الثلث الآخر من الليل، وبالعشي والإبكار، يحاسب نفسه ويلوم، ويكرر مع ابن القيم يخاطب نفسه أن:

(لله ملك السموات والأرض، واستقرض منك حبة، فبخلت بها. وخلق سبع أبحر، وأحب منك دمعة، فقحطت بها عينك)[1]. ويظل يرددها حتى يظن أنه قد استوفى إنذارها.

لا تظلم نفسك باختيار الظلام..

ثم يعاتب عينه من بعد ثانية: لم تنظر ضياء العمل الإسلامي ظلاما؟ ولم تتشاءم بدل أن تتفاءل لدعوة الإيمان بالخير؟

نعم صعب هو الوصول لدولة القرآن، ولن يأتي الدهر بعجيبة من دون جد.

لكنه ضياء كله العمل لها، ليس بظلام، وإن ظن المستعجل وجود تباطؤ أو تعثر.

وهل أسطع من ضياء النية، وضياء الأجر، وضياء الأخوة؟ إن طول الطريق لن يعدم هذه الأضواء أبدًا، ولئن يرجع الداعية بها وحدها خير له من قعود يوسوس به التشاؤم.

---

(1) الفوائد لابن القيم/ ٦٧.

ولكن بعض الدعاة يظلمون أنفسهم بنظرة متشائمة إلى مستقبل الدعوة، ويتهمون التخطيط والقادة والرعيل، فيعتزلون مجالات العمل الوضاءة وهي من حولهم تنادي وتهيب.

وإنما الظلام ظلام المتشائم فحسب، إذ حبس نفسه عن الضياء، والأضواء تنير درب غيره.

وتفهيم المتشائم بهذه الحقيقة معضلة صعبة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يستطيع تصور ما نقول والتصديق بوجود الأضواء.

لكن عبد الوهاب عزام ضرب مثلا تشبيها انتقل منه إلى التفهيم فأجاد، فافترض للمتشائم أنه في حجرة مقفلة سوداء، أليس يبقى من حولها ضوء الشمس؟

حجرة ملؤها الظلام حوتني وحوتها أشعة القمراء

فلما أثبت هذه الحقيقة قاس للمتشائم حالة عليها، فقال معقبا:

رب نفس تلفها ظلمات وهي في عالم كثير الضياء[1]

أي كذلك النفس أحيانًا، تضع نفسها في الظلام باختيارها والضياء من حولها كثير وافر، حتى تنسى تدريجيًا أن هناك ثمة ضياء عافته، فتنكر وجوده، فيعجب المستنيرون، فيزداد المحبوس الواهم إنكارًا، ويظن العجب تكلفا وملاحاة، فيفتتن، ويصرخ في حجرته المغلقة السوداء، فلا يجد إلا صدى الظلمات، فيزداد فتنة، يظن الصدى تأييدًا.

لكن الذين فطنوا لمثال عزام في الساحات وعرصات العمل ماضون، تغمرهم أنوار الفطنة، وتغشاهم السكينة.

إنه الخبر القديم الحديث لأنوار الآمال وظلمات الفتن، ليس هو خبر من

---

(1) ديوان المثاني لعزام/ ٦٩.

نراهم اليوم فحسب، فإن عبد القادر الكيلاني صادف المستظلمين، فوضع لهم معادلة قصيرة سهلة، لو أدركوها لخرجوا من تيههم، فقال:

(إذا خرج الزور دخل النور) [1].

زور سوء الظنون في القلب، المسبب للتشاؤم وعبوس الوجه ، فالظلام.

ابتسامة الحياء مفتاح الأنوار

وخروج الزور يكون بالابتسامة وبانشراح الوجه عند اللقاء، فإن فيهما حماية أكيدة من الوقوع في أخطاء الظنون والتعرض لسهام الوسوسة، وما اكفهر وجه وعبس إلا ترك في نفس المقابل من التصارح والتناصح.

أفلا ترى أن الطلاقة جُنة ... من سوء ما تجني الظنون ومعقل؟

ولا يطاوع الابتسام الفم إلا بلزوم حسن التأويل، يرى الداعية الخطأ والاجتهاد المخالف فيسبق صاحبهما إلى تلمس العذر والتبرير، ويميل إلى أجمل تفسير، ثم يحرص على أن يقرن الابتسامة والطلاقة بحياء لتتميز عن ابتسامة الاستصغار، التي قد يزينها الشيطان بل يتخلق بخلق "البهاء زهير" حين فخر فقال:

إذا قلت قولا كنت للقول فاعلا ... وكان حيائي كافلي وضميني

تبشر عني بالوفاء بشاشتي ... وينطق نور الصدق فوق جبيني

فهما حياء وبشاشة، يبدوان معًا.

أو: هي الفطنة، مفتاحها: ابتسامة الحياء يبتسمها الداعية، فتتوالى الأنوار، وتفيض تباعًا، وتتكامل، يعضد بعضها بعضا، لتبدد ما هنالك من ظلمات الفتنة وتعصم من قواصم الإغواء...

---

(1) فتوح الغيب لعبد القادر/ ٣٧.

إنها مصادر نور أوقدها فقه الدعوة من قبل، لا تزال قائمة تضيء، تنتظر من يلوز بها من المحتاطين الحذرين، والمستدركين التائبين، لـتريهم درب الـسلامة الصحيح يوم تغزو الفتن زمرة القلـب الواحـد، ويـستدرج التأويـل الـدعاة، وتولد الغيبة سلاسل العيوب، ويرمي الشيطان بسهام الغرور والهوى والكـبر وحب المدح، فتفترق الأرواح بعد تأليف، ويحتد التنازع في الرئاسة.

النور الأول: الاستعاذة بالله من الفتن

فأول قبس يتناوله الذي يري الفتنة مقبلة قبس الاستعاذة بالله منها، كما أمرنا رسول الله ﷺ حين لقننا التعوذ منها بإطلاق، وكما فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه لما تعوذ من فتنة الخلاف بين المسلمين، فقال -فيما أخرجه البخاري- حين بدت بوادرها: **(أعوذ بالله من الفتن)**.

مع أن عمار قد شهد له النبي ﷺ بأنه من فئة العدل، وتقتله الفئة الباغية.

قال ابن حجر في الفتح:

(فيه دليل على استحباب الاستعاذة من الفتن ولو علم المرء أنه متمسك فيها بالحق، لأنها قد تفضي إلى وقوع ما لا يرى وقوعه)[1].

فقل مع عمار أيها الداعية وردد: أعوذ بالله من الفتن، وأكثر منها في كـل أحوالك يعيذك الله منها ويقبلك ويعصمك وإن كنت ساذجا، فإنه سبحانه معين معيذ يرحم رجفة الخائف، وذلك الظن به -عـز وجـل- دومًـا، فـإن تجربة المستعيذين تجزم بأنه:

إذا اعتصم المخلوق من فـتن الهـوى ... بخالقـــه نجـــاه مـــنهن خالقـــه

ولكن انتبه: ليست الاستعاذة العابرة تجزيك بل اقرع بـاب الله بإلحـاح،

---

(1) فتح الباري ٢/ ٨٩.

واهجر من يأبي القرع معك وتجنب صحبته، واطرح نفسك على عتبة ربك العزيز بذل، حتى تسمع نداء الأمان.

تلك وصية الناصح الحكيم، إليك وإلى الزاهد يوسف بن الحسين، لما شكا له يوسف من نفسه أخلاقا لا يرضاها، وركونا إلى الدنيا يفتنه، فكتب إليه أن:

(**بسم الله الرحمن الرحيم** : وصل كتابك وفهمت ما ذكرت، ومخاطبك أكرمك الله شريكك في شكواك، ونظيرك في بلواك، إن رأيت أن تديم الدعاء وقرع الباب، فإن من قرع الباب ولم يعجز عن القرع دخل، وإن تهيأ لك ما تريد من الصفاء والطهارة فدع ما أنت فيه من البلاء واقتراف مساوئ لا تجدي منفعة في دينك ولا دنياك، وتجنب قرب من لا تأمنه على نفسك في مواصلة الغفلة والبطالة، واستعن على ذلك كله بالقناعة والتجزي، وسله أن يمنَّ عليك بتوبة).

* * *

obeikandl.com